رسائل قلبيّة

خرج من المستشفى وعاد إلى منزله ليبدأ حياته من جديد .....كان عليه أن يعتاد على القلب الجديد الذي زرع بداخله ... وأن يلتزم بكافة الأوامر و النـــواهي مـــن طبيبـــه ....كانت التاسعة مساء ..... استلقى على سريره لينام ... استرخى .. وراح يغـــطّ في نوم عميق .... بدأ يحلم بشارع طويل ومجموعة من الأبنية على جانبه .... ثم بدأ يحـــسُّ بصوت ضربات قلبه في أذنيه.... كانت هذه الضربات تزداد أكثر فأكثر .... اســـتيقظ مفزوعاً قلقاً وراح يتحسس صدره .... حاول التنفس بعمق فلم يشعر بأي ضيق يمنعه من ذلك .... نظر إلى الساعة فإذا بها الواحدة صباحاً ..... قام إلى المطبخ ... شرب كوبـــاً من الماء و عاد للنوم ....بعد ثلاثة أيام طلب موعداً عاجلاً من طبيبه ... قـــام الطبيـــب بفحصه ومراقبة ضغطه و ضربات قلبه ....

- كل شيء سليم ..... لا أرى أثراً لأية علامات سلبية من قلبك الجديـــد ... إنـــه متجاوب تماماً
- ولكن ... ماذا بشأن هذه الضربات المتزايدة التي أشعر بها كل ليلة ؟؟
- ربما لأنك في حالة جديدة تستدعي منك الحرص ...
- إنني أراعي تعليماتك بالكامل ..... فأنا حريص على حياتي .... لا تقلق ..... ولكن الذي يشغلني أكثر هو هذا الحلم الذي يتكرر معي كل ليلة ...
- أي حلم ؟

راح يحكي له عن الشارع الطويل .....

- لا أرى رابطاً ..... هي حالة عابرة و ستمضي في سبيلها .....

طمأنه الطبيب و أكد له أن الأمور بألف خير ..... كما نصحه أن لا يشغل باله كـــثيراً بهذا الحلم .... و نصحه أن يمارس الرياضة فهي أكبر منشط لقلبه وذهنه.....

لم يتردد ... قَبل الفكرة و خرج لتنفيذها فوراً ....كانت عيادة الطبيب في شارع هادئ مليء بالأشجار وزقزقة العصافير .....وكان هواء الشـــارع نظيفـــاً فقلمـــا تمـــر فيـــه سيارة....بدأ بالمشي و راح يتأمل جمال المنظر من حوله ... لم يكن يدري أين يسير و إلى أين ينعطف ..... و فجأة بدأ يحسّ بضربات قلبه من جديد تماماً كما في الحلـــم .... راحت الضربات تزداد أكثر فأكثر... توقف محاولا إيجاد تبرير لهذا الحال .... لكنه توقف عن التفكير فوراً بعد أن رأى نفسه في نفس الشارع الطويل والأبنية التي على جانبه !!!! لم يتوقف قلبه عن الخفقان في أذنيه ..... و كلما مشى للأمام كانت الضربات تزداد ... تابع سيره بسرعة فإذا بالضربات بدأت تتلاشى عن مسمعه ليعود كل شيء إلى ما كـــان عليه !!!!

نظر حوله ... لا شيء هنا ملفت للانتباه ... إنها مجرد أبنية و شارع هادئ طويـــل ... حاول أن يجد مبرراً نفسياً ... فقرر أن التعب النفسي و الوضع الجديد هو ســـبب هـــذا الإجهاد .. أما الشارع فقد يكون مختزنا في عقله الباطن منذ فترة طويلة و قد بدأ يعلـــن عن نفسه في أحلامه ، أمّا مروره من هذا الشارع فهي محض الصدفة و لاشيء غيرها ....

- أنفع محللاً نفسياً ..... لن أتردد في ممارسة هذه المهنة لعلها تجلب لي الحظ و الشهرة و المال .... إن أجر طبيبي مهول ..... كم يا تُرى يربح في شهره الواحد !! وكـــم ..... وكم .....

تابع مسيره و هو يضرب أخماساً بأسداس وقد شغله موضوع مربح الطبيب.....عـــاد إلى منزله ..... تناول وجبة خفيفة ..... شاهد التلفاز ... تثاءب ..... ثم قام لينال قســـطاً من الراحة ....

استلقى وراح في سبات عميق ليجد نفسه من جديد في نفس الشارع ولكن أمام أحـــد الأبنية .... و كالعادة بدأ القلب يخفق من جديد .... وباضطراب أكثـــر مـــن الســـابق ....وجد نفسه يرفع رأسه ناظراً إلى أعلى البناء ليجد في أحد الطوابـــق وعلـــى أحـــد

الشرفات وجهاً أنثوياً يطفح جمالاً و قد بدأ بدوره في النظر إليه والتبسم له وكأنه يعرفه منذ زمن !!! أفاق من هذا الحُلُم الجميل وسط شعور غامر بالسعادة والدهشة .... ارتدى ملابسه و ذهب لسهرة عند أخيه .....

على الرغم من الجو الجميل الذي ساد هذه السهرة و المرح والسمر... إلا أن صاحبة الوجه الجميل لم تُبارح خياله ...عاد إلى منزله... أكمل سهرته بمتابعة الأخبار على التلفاز ثم دخل إلى غرفته لينام .....

من جديد وجد نفسه أمام نفس المنزل والقلب يخفق بنفس الشدّة ... وجدها من جديد تقف على الشرفة وتبتسم له ... وجد يده تمتد لتصل إلى تلك الشرفة فصارت صاحبة الوجه الساحر أمام ناظريه ....وجد نفسه يعطيها وردة حمراء بعنق أخضر طويل .... أخذتها منه باسمة ...ثم مضت إلى داخل الغرفة .... وعاد هو إلى الرصيف من جديد ..... ثم انصرف مكملاً طريقه ... وقد بدأت ضربات القلب الشديدة تتلاشى شيئاً فشيئاً.....

استيقظ بنفس الإحساس السعيد والبهجة الغامرة ..... حاول أن ينام من جديد لعله يحظى بنفس الحلم فلم يُفلح وقد أشرفت الساعة على العاشرة صباحاً ... أحسّ أن وراء هذا الشارع وهذا البناء و صاحبة الوجه الجميل رابط قوي .... قرر الذهاب إلى هناك وهو في طريقه إلى عمله ..... لم يتردد ... لبس ثيابه و انطلق إلى هناك ....

وما إن صار قريباً من البناء حتى بدأ القلب يخفق من جديد ، تماما كما في الحلم ، اقترب أكثر فأكثر ... وازدادت الخفقات أكثر فأكثر .... ظل يتأمل في الأبنية حتى وجد ضالته ..... وجد البناء والشرفة ....لم يبق سوى أن يرى صاحبة الوجه الجميل .....واجهته مشكلة .... ماذا يعمل ... كيف يصعد إلى الأعلى وماذا سيقول لأصحاب البيت .... ماذا سيحل به !! .... وهل صاحبة الوجه الجميل موجودة أساساً أم هي مجرد حلم !!!

تردد كثيراً ..... و آثر العودة على أن يبقى متسمّراً في مكانه مُلفتاً نظر الناس إليه ...لعل أفضل شيء يعمله هو أن يبتعد عن هذا المكان و يصرف فكره إلى أشياء أخرى لينسى كل ما جرى .....

عمد إلى التحليل النفسي ليجد مخرجاً لهذه الأزمة التي أراد تصغير شأنها وصرف انتباهه عنها ..... لكن تحليلاته لم تفلح هذه المرّة ... فقد ظل أسيراً لصاحبة الوجه البديع .....

- إن الحلم يعيد نفسه و هذا يعني أن الأمر قد يكون صحيحاً ... لن أخسر شيئاً في النهاية .....

تنفس بعمق ثم قرر مواجهة الأمر الغامض بكل شجاعة..... لم يضع خطّة للدفاع ..... بل آثر الهجوم ....ولتكن النتائج ما تكون ....دخل إلى البناء وصعد إلى ذلك الطابق وضربات قلبه تكاد تمزّق أذنيه .....وقف أمام الباب .... أراد أن يقرع الجرس... لكنه أحس أن يده التي أراد رفعها قد صارت بثقل الجبال .... رفع يده المثقلة بالحيرة و الشغف ..... قرع جرس الباب .....فُتح طرف الباب .... ازدادت ضربات القلب ... وازداد اضطرابه..... تسمّر في الأرض وبدأت ركبتاه بالارتجاف ....أطلّت سيدة في العقد السادس من عمرها برأسها من طرف الباب ... كانت صارمة الملامح .. حادّة الصوت

- نعم ..... من هناك ؟
- السلام عليكم ..... أسعد الله صباحك .....
- وصباحك ... ماذا تريد .....

حاول أن يسترق النظر من زاوية الباب الضيّقة التي كانت أمامه وهو يحاول إخراج الكلمات المرتعشة من فمه .....

- آ ..... آ ..... هل السيد صاحب البيت موجود ؟
- " **ارتسمت الدهشة على وجهها** " ولماذا تريده ؟
- أمر شخصي .....
- وهل يعرفك ؟
- كلا ليس بعد .....

- وهل تعرفه أنت؟
- لم يسبق لنا اللقاء .....
- ولن تراه .. لقد مات منذ سنوات .....
- للأسف .....
- لم تقل ماذا تريد .....
- آ ..... آ ..... في الواقع لقد حضرت لموضوع ..... آ ..... آ .....
- بدأت تقلقني و سأضطر لإغلاق الباب .....
- آسف يا سيدتي و لكن الأمر محرج بالنسبة لي ..... و أعتذر عن إزعاجك.....
- إذاً تكلّم و إلا .....
- إنها ..... آ ..... آ ..... خِطبة ..... لقد أتيت للخِطبة .....
- " **ببسمة ساخرة** " ما اسمك؟

احتار بماذا يجيب !!! أحسَ و كأن شيئاً من داخله يملي عليه أن يقول ...

- سمير ..... آ ..... آ ..... سمير عبد الكريم .....

تجمدت ملامحها قليلاً ..... و لم تنطق بكلمة .....

- .... كما ترين الأمر محرج لي . فلا أحد معي حسب الأصول لأنني .....
- " **مقاطعة وبصوت مرتجف ملؤه الحزن و الشجن** " عُد من حيث أتيت و لا تسخر من الناس ..... كفانا ما عانيناه ..... انصرف .
- ولكن أنا .....

أغلقت الباب بقوة في وجهه ..... ازدادت حيرته ..... أراد أن يطرق الباب ثانية لكنه تراجع .. أما دقّات قلبه فلم تتوقف ..... و لم يدر ماذا جرى ..... ولماذا !! نـــزل إلى الشارع ....وقف أمام مدخل البناء ثم راح يحدّق بالشرفة لعلّ الجميلة تخرج..... فلـــم يخرج أحد ..... آلمته رقبته من طول ترقّب الجميلة التي لم تظهر ويبدو أنها لن تظهر فلا وجود لها إلا في أحلامه ..... استسلم لهذا التحليل وسار في طريقه حيث بدأت ضربات القلب العالية تتلاشى من جديد !!حاول أن يجد تفسيراً لكل شيء ..... فلـــم يفلـــح .....

وصل إلى عمله ..... وأمضى ما تبقى من وقته شارداً سارحاً ..... فتح مفكرته وراح يراجع الملاحظات و التذكيرات الهامة ..... لفت انتباهه تذكيرٌ بعنوان

" رسالة شكر إلى من سيهبني قلبه يوم..... " تذكر أن عليه أن يكتب رسالة شكر إلى الأسرة الكريمة التي منحته فؤاد ولدها الوحيد .... وكان عنوان الأسرة مدوّناً على ورقة الوصفة الطبية بخط طبيبه الذي تصعُب قراءته .....

- شفى الله الأطباء من هذا الداء العضال !! ما الفرق بينها وبين الوصـــفة الطبيـــة !! " **ساخراً** " لن يفلح في قراءتها إلا صيدلي !!

تردد ..... هل يرسل أزهاراً ... أم يدفع تبرعاً .....و بدلاً من هذه الخيـــارات قـــرر الذهاب إلى تلك الأسرة ليشكرهم بنفسه خاصة وأنه لم يكن باستطاعته أن يعمل جيـــداً بسبب ما جرى معه في الصباح ...وصل إلى العنوان المدوّن على الورقة ..

ومن حُسن حظه أن السائق الشاب لم يجد أية مشكلة في قراءة ورقة العنوان فقـــد كـــان يعمل مساعداً لصيدلي بين الحين و الآخر ..... كان حيّاً بسيطاً ....نزل مـــن ســـيارة الأجرة وسأل عن اسم البناء و رقمه ..... وبعد جهد بسيط وصل إلى غايته .....

دخل إلى داخل البناء وبدأ بالصعود على درجات السلم وبدأ معه قلبه بالخفق من جديـــد ولكن بصورة أقلّ من ذلك الحال العجيب ..... تأمل ورقة العنوان و قرع جرس الباب الذي كُتبَ عليه " منزل المرحوم الحاج شفيق عبد الكريم " ... فتحت له سيدة كبيرة في العمر ..... عرّفها عن نفسه..... رحبت به و دعته للدخول ..... كان منزلاً بسيطاً .... أدخلته إلى غرفة الضيوف .....

- كيف تحب قهوتك ؟
- لا أريد إتعابك....
- الماء على النار ... وأنا لم أتناول قهوتي بعد .....
- حلوة ... لو سمحت ....
- تفضل ..... أنت في بيتك .....

دخلت لإحضار القهوة ... و لم تتوقف ضربات قلبه التي بدأ بالاعتياد عليها رغم غرابـــة أمرها ... لم تغب أحداث هذا اليوم العجيب عن باله وظلت تؤرّق ذهنه ..... جلـــس يتأمّل الغرفة البسيطة ولفت انتباهه صورة لشاب وسيم .....

- " **بنبرة حزينة** " إنه وحيدي و حبيب قلبي ..... لم يستمتع بحياته كثيراً .... الحمد لله على كل حال ..... تفضل قهوتك .....
- رحمه الله ..... كيف توفي ؟ أرجو أن لا أكون غليظاً بسؤالي ؟
- حادث سيارة ..... مات بعد وصوله للمشفى . وكان قد أوصى بقلبه وكليتيه لمـــن هم في حاجة ماسّة إليها .
- ..... رحمه الله . ألم يتزوج ؟
- لم يكن هناك نصيب .....
- تقصدين بوفاته .....

- لا بل لم يُوفّق في محاولة حُبّه فقد كان الفارق كبيراً ..... أحب زميلة له في الجامعة ..... لكن إرادة أهلها كانت أقوى منهما... " **ضاحكة** " تماماً كما في الأفلام .....
- إذاً ..... زوّجوها ممن لا تحب كالعادة ....
- نعم ..... ولعن الله الطمع ..... لو تزوجا لكان الوضع أفضل للجميع .....
- قدّر الله و ما شاء فعل ، الحمد لله الذي أمرهُ خير بحقّنا حتى ولو لم نعرف حكمته مباشرة .....
- لكنها لم تحتمل الحياة مع زوجها ..... و ماتت .....
- ماتت !!
- نعم ... وهي تضع مولودها في المشفى ..... لقد كان قلبها ضعيفاً لا يحتمل آلام الولادة و لم ترض أن تلد بمخدّر موضعي أو بعملية قيصرية .... وكأنها كانت تريد الخلاص من حياتها... كان حبيب قلبي يأتيني بكل أخبارها حتى بعد أن ضاعت من يده .....
- " **مقاطعاً** " عفواً ... لكنني لم أسألك عن اسم ولدك ....
- سمير ... آسفة لأنني لم أعلمك باسمه من قبل .. المسكين كان يقول بأنها ضاعت من يده لكنها ستبقى في قلبه ...
- " **تأمل ورقة العنوان من جديد و تسمّر للحظات** " ..... أعتذر عن مقاطعتك ... أرجوك تابعي حديثك .....

استمرت في الحديث عن ولدها و حبه الشهيد ..... بينما غرق هو في بحر من الحيرة من جديد.. راح يتذكر ما جرى معه صباح هذا اليوم ..... والاسم الذي جرى على لسانه ..... حاول ربطه مع الكنية المدونة في ورقة العنوان .....

تذكّر كيف أنه لم ينطقه بإرادته ..... بل تلقنه تلقيناً وإحساساً ....أطرق برأسه قليلاً وراح يحلل الأمور ..... أحسّ وكأن الصورة قد بدأت تكتمل و انه قد وجد الرابط المفقود .....

- سبحان الله ..... سبحان الله ..... آسف على مقاطعتك من جديد .... سأحكي لك حكاية عجيبة جرت معي يا خالة ....
- " **بشغف** " أنا أحب القصص العجيبة ..... كلّي آذان صاغية.....

راح يحكي لها عن الحلم الذي كان يراه مرات عديدة وعن صاحبة الوجه الجميل ... وعن ما جرى معه صباح هذا اليوم ..... كانت أم سمير تسمع و قد تجمدت قسماتها ..... ثم نطقت عيونها بفيض من الدمع راح يسري في أخاديد وجهها .....

- ..... إن قلبه ينبض حبّاً بها و إخلاصاً ووفاء لها..... وهذا هو سبب الخفق الذي كنت أشعر به كلما اقتربت من بيتها سواء أكان في الحلم أم في الواقع..... كان يريدني أن أصل لها... بالمناسبة ماذا كان اسمها؟
- أميرة ..... لقد كانت أميرة اسماً و شكلاً .... لحظة ... لديّ صورة لها كان سمير يحتفظ بها...

جلبت الصورة من دُرج الطاولة ... إنها هي بذاتها ... تلك الجميلة التي سكنت أحلامه وما أن نظر إليها حتى عادت الضربات لتزداد من جديد وبقوّة ..... طلب من أم سمير أن تضع يدها على صدره لتتحسس هذه الضربات غير العادية ....

- هذا ما اشعر به ..... كأنه يتحدث عنها ... كأنه يقول لي " **إنهـــا لي وحـــدي** .." ..... أرجوكِ أبعدي الصورة .

أعادت الصورة إلى الدرج وغلبها البكاء ثانية ..... استأذن ليرحل حتى لا يثقل عليها ..... لكن أم سمير طلبت منه البقاء للغداء ..... اعتذر بلباقة ووعدها بزيارة قريبة ..شكرها على القهوة ثم اخرج ظرفاً من جيبه و قدّمه لها على استحياء.... لكنها ردّت يده بإباء و شكرته على زيارته وعلى القصة الجميلة التي أسعدها بها فهي عندها بكنوز الدنيا ..... عند الباب ..... وقبل أن ينزل الدرج قالت له .....

- جزء من سمير بات يسكن فيك ..... ولعل الجميل الوحيد الذي تصنعه معي هو أن لا تحرمني من سماع ضربات قلبه الحبيب .. لعلك تزورني بين الحين والآخر كلما سنح لك الوقت .....
- أفعلُ إن شاء الله ولا أقصّر ..... إلى اللقاء .....

استقل سيارة الأجرة عائداً إلى منزله لينال قسطاً من الراحة .... وفي الطريق طلب من السائق أن يغيّر مساره و ينطلق به إلى بيت أميرة ..... نزل من السيارة ودخل إلى داخل البناء ... وصل إلى المنزل وقرع جرس الباب ..... فتحت له السيدة من جديدو كانت على وشك أن تغلق الباب بوجهه ثانية ..... لكنه استحلفها أن تسمع القصة بكاملها ولو من على الباب ثم ينصرف ..... عرّفها باسمه ثم شرع يحكى لها ما حكاه لأم سمير وما جرى هناك... وأكّد لها أن ما تسمعه حقيقة على غرابته..... ولها أن تتأكد فتذهب إلى عنوان أم سمير .... ووضع ورقة العنوان على عتبة الباب ..... ثم استدار لينصرف وهو يقول:

- لا أدري إن كانت هذه رسالة منهما لك ..... لعلّها وصلت ..... و لعلّك قد فهمتها.....

انصرف عنها و لم يُعـــر انتباهاً لصوت بكائها و كلماتٍ مهزوزة كانت تخرج من فمها خرج واستقل سيارة أجرة إلى بيته ..... جلس ليتناول يسير الطعام ثم اســـتلقى علـــى سريره لينال قسطاً من الراحة ويستعد للحلم الجديد ...

شاهد نفسه في بستان من الزهور الجميلة متعددة الألوان ..... كان يمشـــي بينـــهما ممسكاً بيد كلّ منهما ..... قام فقرّب يديهما إلى بعضهما البعض وبدأ بالابتعاد عنـــهما شيئاً فشيئاً وهما ينظران إليه و يبتسمان له ..... ودّعهما ملوحاً بيده وراح يتراجع إلى الوراء ..... وأثناء ابتعاده عنهما كان يسمع صوتاً نديّاً يغنّي بيتاً من الشعر

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كل الظنّ أن لا تلاقيا

محمد جمال الدين السباعي

حلب

2005/6/19